الفكر الجغرافي

المقدمـــــــــــــــــــــــــــة :

ما المقصود بالفكر الجغرافي وما محوره العام وعلاقته بتطور الجغرافية؟

يعتبر موضوع الفكر الجغرافي من المواضيع الاساسية والمهمة بالنسبة للجغرافيين لأنه موضوع يحدد ماهية علم الجغرافية وحدود ابحاثها وعلاقتها بالعلوم الاخرى وقد يتطلب الالمام بهذا الموضوع الجديد معرفة التغيرات والتطورات التي حصلت للمعرفة الجغرافية وكذلك النظريات والافكار التي سيطرت وما زال بعضها يسيطر على كتابات الجغرافيين في مختلف انحاء الارض وفي مجرى الزمن السابق والحاضر.

لاشك ان كتابات الاستاذ هارتشون الواردة في كتابيه طبيعية المعرفة الجغرافية The nature of geography او كتابه الاخر الذي صدر في سنة 1950 تأمل في طبيعة المعرفة الجغرافية Prospective on the nature of تغني طلبة الجغرافية في معرفة التطورات التي اصابت الفكر الجغرافي في خلال العصور الحديثة فالفهم لحقل الجغرافية كما يظهر من كتابات الجغرافيين لها وجهات نظر عديدة ولم تتوصل الى اتفاق عام حول طبيعة هذه المعرفة وحدودها مما سيجعلنا نهتم بوجهات النظر هذه مع التأكيد على النظريات والافكار التي دارت حول هذا الموضوع .

وعلى الرغم من ان للجغرافية جذورا قديمة ترجع الى وجود الانسان على الارض الا ان تطورها كفرع علمي متخصص حديث قد جاء من علما ء في اوربا وخاصة من المانيا فقد كتب كانت عن سلوك الانسان ومدى تأثره بظروف البيئة الطبيعية ولاسيما المناخ اما تحديد موضوع الجغرافية الحديثة فتبدا بالعالم الالماني كارل ريتر الذي حاول دراسة البيئة واظهار علاقتها بالإنسان ثم جاء الكسندر هبمولت وهو عالم جغرافي الماني اخر كان على شاكله زميله ريتر يؤمن بسلطان البيئة ويمكن ان نستنتج من اراء المتقدمين في القرن التاسع عشر من العلماء عن مفاهيم الجغرافية : -

1-ان الجغرافية كانت تدرس التباين المكاني على سطح الارض .

2 - وقد اعتمد منهج الجغرافية على منحيين هما الدراسات الاصولية والدراسات الاقليمية وكلاهما يركز على الاختلافات المكانية .

3- وقد نجم عن لك ان وصفت الجغرافية بانها عالم ثنائي اي انها تعترف بالتميز ما بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية وبرزت بذلك مشكلة في منتصف القرن التاسع عشر لم يتم التغلب عليها الا في نهاية القرن الحالي.

ان التأكيد على دراسة اشكال سطح الارض في الابحاث العملية التي قام بها الجغرافيون قد رسخت علم الجيومرفولوجية كفرع من فروع الدراسة الجغرافية في المانيا وامريكا واقطار خرى وقد ظهرت دراسات تخص الاقليم الطبيعي وعلى هذا الاساس لجا البعض من الجغرافيين الى حذف بعض الظواهر الطبيعية باعتبارها غير مناسبة للدراسة العلمية.

وقد عرفوا الجغرافية بانها علم كوكب الارض بدلا من علم سطح الارض بينما اتجه البعض الاخر الى تعريف الجغرافية بانها دراسة للعلاقات بين البيئة الطبيعية والانسان وبينما يؤكد بعض الكتاب في الجغرافية على ان الجغرافية هي دراسة التوزيعات على سطح الارض ثم خرج هارتشون بتعريف اخر وهو ان الجغرافية دراسة للتباين المكاني لسطح الارض.

وعليه فان هنالك تعاريف كثيرة للجغرافية ناقشها بريستون جيمس في مقالة قدمها الى المؤتمر الجغرافي الامريكي وطبعت في كتاب حيث ان الجغرافية تهتم بترتيب الاشياء على وجه الارض American geography وبالارتباطات للأشياء التي تعطى الخاصية للاماكن المحددة.

لقد تداول الجغرافيون او مجموعات منهم في عهود مختلفة في الماضي افكارا في حقل الجغرافية تختلف كليا عن افكار ا في اولئك الجغرافيين الذين كانوا يمثلون الخطوط الرئيسية لتطور الحقل الجغرافي فاذا اعتبرت الجغرافية دراسة التباين المكاني في العالم فلابد من وضع معايير من شانها ان تشير الى التباين المكاني حيث اتجه هتنر الى وضع اسس لهذه المعايير منها السمات المختلفة من مكان لآخر والتنوع المتضمن نظاما وانظمة تشتمل على تجمع مكاني للظواهر على ضوء موقعها وعلاقاتها ببعضها البعض .

وبناء على ذلك فقد تنطبق المعايير على حالات معينة عن طريق التفسير المكاني لها وقد تمثل البيانات التي تجمع من خلال المعايير بخريطة تقوم بالكشف عن مقارنات واضحة ما بين العناصر التي تحتويها وقد ظهرت خلافات بين الجغرافيين عند دراسة الاقاليم وسببها تقسيمهم للعالم الى وحدات مكانية فالمظهر العام للأرض او كما يطلق عليها الالمان تمثل اشياء فردية ورغم ان هذه الطريقة قد انتشرت حتى في الولايات المتحدة والتي ادخلها الاستاذ فأنها قد رفضت كاملة وبكل مظاهرها ان التأكيد على كون الاقليم اشياء متميزة كما لو انها كاملة بحد ذاتها قد ادى الى اهمال اهمية احد العوامل الجغرافية الاساسية وهو موقع الظواهر على سطح الأرض بالنسبة لبعضها البعض الاخر ان تحديد الاقليم لا يشير الى اكثر من تقسيم لسطح الارض قد صنعها الباحث ولايخفى منذ البداية بوجود مشكلة تخص الطريقة التي اتخذ بها تقسيم العالم الى اقاليم فمن المهم ان نجد المهارة والاساليب العلمية الكافية لان تتخذ من العالم اقاليم جغرافية.

فالأقاليم الطبيعية مثلا تعتمد في تحديدها على النماذج المناخية او النباتية فكانت الطريقة هذه غير مقنعة لأكثر الجغرافيين وهكذا فان نظرية (الاندشافت ) او ما يسمى بالاند سكيب اثارت جدلا طويلا لاسيما في الجامعات التي تتكلم الانكليزية وقد ناقشها هارتشون في كتابه واعطى محاسنها وعيوبها ونهى اخيرا عن استعمالها.

وبالرغم من ان الاستاذ الامريكي ساور قد اقتبس نظرية الاند سكيب الا انه عالج موضوعه من خلال العلاقة بين الحتمية والامكانية اللتين عالجتا موضوع العلاقة بين الظاهرات الطبيعية والظاهرات البشرية بدليل ان الاستاذ ساور قال بوجود نوعين من المظاهر العامة لسطح الارض وهما مظهر سطح الارض الطبيعي وهو ذلك المظهر الموجود سواء وجد فيه الانسان ام لم يوجد اما المظهر الحضاري فانه المظهر الذي اصاب التغيير والتطوير والتشكيل بعضه أو جميعه من جراء عمل الانسان ونشاطه وفعاليته وفي ضوء هذا المنظور امكن تحديد المدلول العام لنظرية ساور حول المظهر العام لسطح الارض باعتباره الميدان الجغرافي الذي يتناوله بالطريقة التحليلية والتفسير والربط والتحليل اخذا بنظر الاعتبار الدعامتين الكبيرتين اللتين تفاعلتا في حيز المكان والزمان .

اما نظرية ديورنت وتيلسي وتحديده لموضوع الجغرافية بالتعبير الاتي :ان اكثر ما تعنى به الجغرافية هو دراسة الاعمار المتتالي وقد جاء بهذه النظرية في عام 1929 وقد جاء بعده الاستاذ (جونز) في عام 1955 ونشر كتابا حول الاعمار البشري المتتالي للإقليم وقد اتخذ نفس المنحى الذي اتخذه w.Johnes الاستاذ وتيلسي وهكذا قد جرى تطور في الفكر الجغرافي الحديث من النظرية الاولى – نظرية المظهر العام لسطح الارض – الى النظرية الثانية ونظرية الاعمار المتتالي . وهما اساسا يستندان على الظاهرتين اللتين تعتبران الدعامتين الكبير تين للجغرافية وهما الظاهرة الطبيعية والظاهرة البشرية وفي طيهما عنصرا الزمن والمكان.

وهناك نظرية ثالثة وهي نظرية الموقع التي ترجع الى مؤسسها الاستاذ دنكل الا ان راي هارتشون يؤكد على ان الاستاذ فردريك مارثا هو الذي وضع اسس هذه النظرية (سنة 1877) عندما وصف الجغرافية بانها علم التوزيع الذي يعني بدراسة مواقع الاشياء.

وقد تطورت فكرة مارثا تطورا كبيرا خصوصا في النصف الثاني من هذا القرن وتركز الدراسات اولا في الجغرافية الصناعية والجغرافية الزراعية وفي جغرافية المدن وقد تم تطبيق فرضيات هذه النظرية باستعمال طرق الاحصاء والرياضيات والتحليل الكمي. ويلخص محتوي هذه النظرية – نظرية الموقع بما ياتي : ان للظاهرات الجغرافية مواضع وان لكل من هذه الظاهرات موقعا يميزها عن سواها وان كانت ترتبط هي وبقية الظاهرات بعضها بالبعض الاخر . ويهذا يمكن تحديد درجة الارتباط بينها . بين ظاهرتين اوبين مجموعة من الظاهرات اذا ما كان قياس كل ظاهرة امرا ممكنا للقيام به على انفراد .

يمكن تلخيص ذلك بما يأتي:

1-اتجاه الجغرافية خلال القرن الماضي (القرن التاسع عشر )الى الفلسفة البيؤية حيث قامت مدرسة تؤمن بالبيئة وبتحكمها في الانسان ولذلك سميت بالمدرسة التحكمية.

2 - ظهرت مدرسة ثانية معاكسة لاراء ماجاءت به المدرسة الاولى وهي المدرسة السلوكية او المدرسة الامكانية.

3 - ظهور المدرسة المعتدلة والتي نادى بها كريفش تايلر ويمكن مراجعة تفاصيلها في كتابه : الجغرافية في القرن العشرين وتتلخص في عبارته المشهورة اي قف وسر.

4 - ظهور نظرية المظهر العام لسطح الارض.

5 - ظهور نظرية الاعمار المتتالي.

6 - واخيرا نظرية الموقع.

7 - اما المناهج الدراسية للأبحاث الجغرافية فقد اتجهت الى طريقه الإقليمية والى الطريقة الأصولية واخيرا الرياضية والكميه..